المالكي وسرّ الإصلاحات الخفي!

د. طالب الرماحي

المالكي وحيداً

من منا لا يدرك أن السيد المالكي يعشق منصب رئيس الوزراء أكثر من عشق المجنون لليلاه، ومن منا لا يعلم أن هذا المعبود (المنصب) يتعلق بقاؤه بإقامة إصلاحات يطالب بها كل شركائه السياسيين وقبلهم الشعب العراقي والذي بات ينتظرها كـ(هلال العيد)، لكن ذلك الهلال لم يطل لا على الشعب العراقي ولا على الفرقاء السياسيين طيلة السنوات الست الماضية التي تربع فيها (الحجي) على الكرسي الحلم، فلماذا إذن لا يسحب السيد المالكي ومعه طاقم حزب الدعوة هذا البساط من تحت أقدام مناوئيه بتنفيذ تلك الإصلاحات، وهو الذي يمتلك أكبر ميزانية لدولة في المنطقة ويحيط به (خبراء ومبدعو) حزبه، خريجو أعرق جامعة في بريطانيا (الجامعة العالمية) التي أنشأها المرحوم محمد علي الشهرستاني في (كركل وود في لندن). فيضع حداً لمعاناة شعبه وعلى أقل تقدير يحل معضلة تميز بها العراق دون غيره من دول لا إله إلا الله أجمع وهي (غياب الكهرباء).

أننا نتفق جميعاً أن مقومات هذه الإصلاحات متوفرة تماما لأن حاجة الإصلاحات المادية (المال والرجال) ونحن والحمد لله نمتلكهما وأكثر، أما الإصلاحات السياسية، ففي ظل الديمقراطية وطاعة الدستور والاعتراف بأهمية تداول السلطة، وتطبيق الوعود في أن هدف الجميع هو الصالح العام وليس المناصب، مع كل ذلك يصبح تنفيذ الإصلاحات أمرا يسيرا وهذا ليس بدعة ونحن نراها في كل دول العالم التي تعيش سلاما ووئاما في ظل الديمقراطية.

إذن ما هو السر المجهول الذي قلب (الطاولة) في المشهد السياسي وأبقاها على رؤوس العراقيين وجميع السياسيين، تكتم أنفاسهم وتسود نهارهم وتنغص مزاجهم.

مع ما ورد أعلاه يبدو أن هناك أمرا لم يفهمه العراقيون وأولهم السياسيون الذين يوالون المالكي أو يناوئونه، أتريدون أن تعرفون ذلك السر تعالوا إذن:

أتتذكرون صدام، كم طالبه العالم بالإصلاحات فلم يستجب؟ وبقي مصرا على نهجه مع علمه أن النار قد بلغت أطرافه ومع ذلك بقي سادرا في غيه حتى التهمته تماما وأحرقت معه الحزب والحاشية والعراق.

ولا يختلف معمر القذافي عن صدام في تمسكه بنهجه حتى مسكوه في حفرة للمجاري، وطالب العالم حسني مبارك قبل الثورة المصرية بإصلاحات حقيقية لكنه زور الانتخابات الأخيرة بشكل صارخ ومكشوف، وكذلك الحال في كل الطواغيت والذين وضعوا أسسا خاصة ومحكمة لطبيعة تعاملهم مع الدولة والشعب، وها نحن ننظر لما يحصل في سوريا من تشبث حزب البعث في الحل الأمني الدموي مع علم أمينه بشار الأسد وأركان نظامه أن الأمور تسير سراعا نحو حرب أهليه سوف تعصف به أولا وتطيح بكامل نظامه وتترك البلد خرابا.

وأنا لا ألوم صدام والقذافي ومبارك وبشار الأسد على مواقفهم وكل رؤساء الأنظمة الشمولية، لأنهم قد تورطوا في صنع أنظمة غير قابلة للإصلاح وهي تفتقد أصلاً لمقومات ذلك الإصلاح، فنظام أحدهم أشبه بالغدة السرطانية التي لا تحسن غير إنتاج الأورام الخبيثة والآلام ولا سبيل لإصلاحها، لقد تغير تركيب خلاياها بتقادم الوقت وتكالب الفساد، نعم هناك طريق واحد يمكن به التعامل معها وهو (القلع والاستئصال) ومع ذلك فإن الجسم يبقى يدفع ثمن بقائها فيه كلما طال وجودها فيه، وقد رأينا كم كلفنا بقاء صدام في الحكم ثلاثة عقود.

ونأتي إلى حزب الدعوة في العراق وأمينه العام، ونتساءل لماذا هو مصر على موقفه المتردد في إقامة الإصلاحات التي يطالبه بها فرقاؤه السياسيون جميعا عربا وكردا سنة وشيعة، حتى الشيعة يشعرون بمرارة تستطيع أن تتلمسها في حديث أي واحد تقابله، سواء كان من المجلس الأعلى أو التيار الصدري أو الفضيلة ناهيك عن المستقلين الذين تورمت صدورهم من الآهات. والذي يريد أن يتمعن في وجوه نواب المالكي فلا يجد رفضاً خيارات (الإصلاح، سحب الثقة، الاستقالة) وحسب، وإنما يجد وجوها مكفهرة يعلوها غضبٌ غريبٌ تخفي وراءها من النوايا ما لا يعلم به في قادم الأيام إلا الله، وخاصة عندما نرى لهجة التهديد تارة وأخرى التنبؤ بالفوضى وما لا يحمد عقباه، في حالة غياب المالكي عن الحكم حسب زعمهم.

فأنا لا ألوم السيد المالكي ولا حاشيته، فهم جميعا غير قادرين على الإصلاح، لأن الأسس التي ابتنيت عليها التركيبة الحكومية وخارطة العلاقات مع الشعب والسياسيين أفرزت نمطاً حكومياً غير قابل للإصلاح إطلاقاً. وهم بعد ست سنوات من الممارسة بهذا النمط وصلوا إلى حالة لا يستطيعون معها تجاوز الكثير من المتبنيات السياسية السلبية التي تأصلت في تعامل الحكومة مع محيطها السياسي والاجتماعي. فإصلاح الفساد يتطلب تقديم المفسدين الكبار جميعا إلى القضاء، وهو لا يستطع لأن هناك علما مسبقا وتفاهما معهم وتقديمهم للقضاء يعني كشف المستور أمام الشعب، وإلا اسألكم بالله دلوني على تفسير أن يساعد المالكي عبد الفلاح السوداني على الهرب إلى لندن أو التستر على صفاء الدين الصافي وحمايته من القضاء وهؤلاء نموذجان صارخان لعلاقة الحكومة بالفساد فكيف تجرّأ على معالجته وهي تشارك فيه بثقل، وأسألكم بالله مرة أخرى كيف يجرأ المالكي على فصل مزوري الشهادات العليا ومقاضاتهم والكثير من نوابه ورموزه في مكتبه وفي أغلب الوزارات تعينوا بشهادات مزورة، إن تطهير الحكومة ودوائر الدولة من مزوري الشهادات تعد فضيحة كبرى لحزب الدعوة، يمكن لها أن تعصف به، ولذلك نرى السكوت عنه مع أنه يمس صميم العلم والأداء الحكومي في العراق، فالفساد المالي والإداري وسرقة المال العام التي هي سمة بارزة للحكومة هي من أكبر الأسباب التي عمقت الخلافات السياسية وزادت من معاناة الشعب العراقي، لكن المالكي عاجز عن التقرب منه للأسباب التي أوردناها، ولذلك لم يكن أمام الحكومة غير أن تتعايش مع تلك المعضلة وتروض الشعب عليها بعد أن رأت عدم قدرتها على إصلاحها.

ولذا فأنا أتوقع أن الدعوة (أمينا ومكتبا سياسيا وموالين) سوف لن يجرؤوا على أي عمل إصلاحي يرضي الفرقاء السياسيين أو الشعب، لأنهم أصلاً غير قادرين، وسوف يبقى نهج المراوغة هو السائد في تعاملهم مع المشكلة، مع التشكيك بإخلاص الخصم وتعميق الخلافات وتعقيدها، انتظارا لحلول معجزة، ناسين أن زمن المعجزات قد انتهى وحل مكانه عصر الشعوب.

قبل خراب البصرة

بشكل لافت للنظر،يبحث جيل من الشباب في اليوتيوب،الأيام هذه عن(اغاني المعركة)وهي تسمية أطلقت على الأغاني والأناشيد التي سجلها تلفزيون بغداد للحرب مع إيران،ليستنسخونها على هواتفهم الشخصية الجوالة،وليستمعوا لها عبر الهيدفون،فرادى أو متجاورين،وهي قضية تستحق التوقف قليلا،إذا ما علمنا بأن بعض الأغاني هذه لحنها ملحنون وموسيقيون كبار،وهناك مقطوعات غاية في الجمال والأتقان تستهوي عشاق الموسيقى.لكن الأكيد بحسب بعضهم،أن الأغاني تلك تتحدث عن مرحلة من المراحل كان العراق فيها (البطل العربي)الأول،هل نتلمس هزيمة في نفوس جيلنا الجديد،؟من يقول لا هو المخطئ بيننا،بكل تأكيد .

على الرغم من ظلم وقساوة وبطش النظام السابق حتى بأقرب محبيه إلا أنه،شئنا أم أبينا،كان امتدادا لمئات وآلاف من السنين، ظل العراقي فيها يشعر بالقوة والعظمة،ولم تبارحه فكرة البطولة،الفكرة التي تمد جذورها عميقة في روحه منذ آشور بانيبال وسرجون الأكادي وحتى علي بن أبي طالب،الذي لم يفهم صورته إلا من خلال السيف (ذي الفقار، والأسد) الرابض عند قدميه،ويكاد يغيّبُ أيَّ حديث عنه خارج منطق القوة والفروسية،وحتى اليوم،وبعد الهزائم والويلات الكثيرة التي عاشها ظلت صورة البطل في ثورة العشرين،من أمثال الشيخ شعلان أبو الجون والشيخ ضاري وسواهما هي التي يحرص ويبحث على تأكيدها في إفلاس شبه تام من وجود مماثلين لهم.وهي مشكلة أخرى تؤرقه،راح يبحث عن معادلها في مواقع اليوتيوب.

بعد نهاية حرب الثماني سنوات مع إيران واشتداد الحصار عليه وعقب هزيمته في حرب الخليج الثانية ودخول القوات الأجنبية بغداد وجد العراقي نفسه ضعيفا،مهانا،فهو بلا جيش يدافع عن حدوده،بلا شرطي أو قانون يحميه من خصمه المحلي،زاد ذلك تطاول بعض دول الجوار الصغيرة والكبيرة عليه،والعبث بأمنه،فجأة صار الرجل المريض،هو الذي كان يعتقد بأن أي قوة في الكون لا تستطيع الوقوف بوجهه والصمود أمامه ساعة من النهار،وهو سلسل الرفعة والمنعة والعلو،أو هكذا أوهمه النظام السابق،وهي مشكلة نفسية ظل يعاني العراقي،أي عراقي منها،هناك شعور أبدي بالبطولة،لا ينفك يؤرقه،وهناك إحساس بدونية الآخر،أيّ آخر من دول الجوار،فهو يسمي الإيراني(أبو القمل)والكويتي(هذا شنو؟)والسعودي(منو هذا؟) وهكذا وجد نفسه عاليا ،أعلىٍ من أي كان،حتى أنه بات لا يقارن نفسه إلا بنخيله المنتصب أبداً.شعور متجذر،عميق،لا أحد يرتقي لمعناه اليوم،هذا الشعور العظيم،ومع شديد الأسف،لم يراع اليوم،أغفله الحاكمون الجدد،الحاكمون الذين بعثروا قواه بمشاريعهم السياسية الفاشلة،بددوا ثرواته،وحطموا قيمه التي لا يستطيع العيش خارجها،العراقي الذي لم يحظ بحاكم واحد قادر على منع اقتتاله مع أخيه،لذا،وكتعويض،ليس إلا،ربما رأيناه يلتجئ لشبكة الانترنيت،عساه يجد ضالته في شريط السلليوز،فهو يبحث عمن يسمعه وجيب روحه.

هناك من يرى في سماعه لأناشيد الآلام في العزاء الحسيني على أنها نوع من النكوص الداخلي،إرتداد في الذات،ويذهب آخرون إلى أن مشاهد الضرب بالسيوف على الرأس يوم العاشوراء،والحرص على القيام بها أمام الملأ، لا تخرج عن ذلك،وبمعنى من المعاني يريد العراقي أن ينتصر على هزائمه،يريد أن يتوازن مع محيطه في الداخل والخارج،وفيما هو في دوامة ذلك،هناك من يعمل على تفريغه من شعوره هذا،دول كبيرة وصغيرة تعمل على هدم شعوره فيما ينشغل حاكموه بخلافاتهم،بعيدا عن التفكير باستعادته بطلا حقيقيا،بطلا منتصرا على نفسه أولا، قبل أن يفكر بالانتصار على غيره،العراقي الذي شكلت جملة (الأوهام) شخصيته لا يجد اليوم من يعيد له أوهامه تلك.

مصر تختار بين الفريق والمرشد

حميد الكفائي

أمضيت الأسبوع الماضي في مصر من أجل الاطلاع عن قرب على ما يجري هناك في مرحلة حاسمة. ومصر لا تخص المصريين فحسب فهي قلب الوطن العربي والبلد الأكثر تأثيرا في الثقافة والسياسة العربيتين لذلك فإن شأنها يهم كل عربي وما يجري فيها يؤثر بدرجة ما على الأحداث في البلدان العربية الأخرى. التقيت في زيارتي بعدد كبير من المصريين من كتاب وصحفيين وسياسيين كما التقيت بزملاء إعلاميين قادمين من بلدان أخرى، عربية وأجنبية، لتغطية الحدث الأهم فيها ألا وهو انتخابات الجولة الثانية للرئاسة المصرية التي ستجرى على مدى يومين هما السادس عشر والسابع عشر من حزيران الجاري.

مرسي وشفيق

المرشحان الرئاسيان هما آخر رئيس وزراء في عهد الرئيس المخلوع حسني مبارك، الفريق أحمد شفيق، ومرشح حزب الإخوان المسلمين الدكتور محمد مرسي الذي يتزعم حزبا سياسيا هو الحرية والعدالة. وعلى مدى إقامتي في القاهرة، كنت أزور ميدان التحرير يوميا، صباحا ومساء، أتجول فيه واستمع إلى المناقشات الحامية الوطيس بين المتجمعين فيه، من مؤيدي شفيق ومرسي ومن الرافضين لكليهما. معظم الذين تحدثت إليهم يفضلون شفيق على مرسي، حتى بين المتدينين الذين قال لي بعضهم إنهم يؤيدون شفيق (خوفا على الدين) من الإخوان. قال لي أحدهم إن الإخوان سوف يلغون دور الأزهر الرائد في العالم الإسلامي فهم يناصبونه العداء ويعتبرونه جزءا من مؤسسات النظام السابق وهم سوف ينصبون أنفسهم قيمين على الإسلام والمسلمين، مستخدمين السلطة لتعزيز نفوذهم ومواقعهم في البلد؛ وقال أيضا إن الإخوان إن جاءوا للسلطة فهم سيقسمون الشعب ويثأرون من خصومهم ويغرقون البلد في الفتاوى التي ما أنزل الله بها من سلطان مستشهدا ببعض الفتاوى الغريبة التي لا علاقة للإخوان بها. بينما قال لي آخر إنه سيصوت لمرسي لأنه يخشى الله ولأنه يمثل الإسلام ولأنه سينتصر للمظلومين والمحرومين. وأضاف أن الإخوان يقدمون المساعدات للفقراء وهم خارج السلطة فكيف إذا تولوا السلطة؟ إنهم سوف يضاعفونها. وأضاف أن شفيق يمثل النظام السابق "الذي ثرنا عليه وتخلصنا منه ولن نأتي بالنظام السابق من الشباك بعد أن طردناه من الباب". وهذه الآراء سمعتها من كثيرين من الجانبين.

الجدال محتدم بين المصريين وهو أمر طبيعي جدا في مرحلة تأسيسية تنقل البلاد من حكم العسكر إلى حكم مدني ديمقراطي. والجميل في هذا النقاش أنه بين المصريين أنفسهم وليست هناك قوة ثالثة، كالأمريكان في العراق الذين ساندوا (أو اتهموا بمساندة) جهة على حساب أخرى ثم وقفوا مع الأخرى على حساب غيرها كما يتهمهم خصومهم. ورغم أنهم غير موجودين عمليا، إلا أنهم موجودون في النقاشات الدائرة بين المصريين إذ يعتقد كثيرون أن أمريكا ليست بعيدة عن الساحة السياسية بل هي تتدخل فيها كل يوم. لكن الملاحظ في الشارع المصري هو أن هناك توجسا وخيفة من حكم الإخوان بين قطاعات كبيرة من الشعب. والمخاوف متعددة ومتنوعة بل ومتناقضة في كثير من الأحيان. كثيرون يخشون على قطاع السياحة المهم جدا للاقتصاد المصري من حكم الاخوان الذين سيطبقون أحكام الشريعة التي ستحد دون شك من حركة السياحة. البعض الآخر قلق على الوحدة الوطنية والتماسك والوئام الاجتماعي بين المصريين، فحكم الإخوان المسلمين في رأيهم سوف يضيق على حياة الأقباط ونشاطاتهم الاقتصادية والسياسية وفاعليتهم في المجتمع المصري كما سيفرض الكثير من القيود (الشرعية) على المسلمين أيضا. البعض الآخر قلق من أن الإخوان سوف يلغون معاهدة السلام بن مصر وإسرائيل مما يدخل البلاد في حالة حرب مدمرة ومضرة بعلاقات مصر الدولية واقتصادها المرتبط بالاقتصاد العالمي مما سيعود بمصر إلى عقود الخمسينيات والستينيات التي سادها القلق وعدم الاستقرار. آخرون يعتقدون أن الإخوان ليست لديهم خبرة في إدارة البلاد وحفظ أمنها وأن انتخابهم هو مخاطرة لن يقدم عليها المصريون في الوقت الحاضر. بينما أشار معسكر آخر الى تناقض خطابات الإخوان ومواقفهم، فمن زهدهم بالسلطة المعلن سابقا إلى تهافتهم عليها لاحقا.

ومن الناحية الثانية فهناك قلق بين كثير من المصريين من أن انتخاب أحمد شفيق، الذي تصر حملته الانتخابية على تسميته بالفريق، ربما لاعتقاد القائمين عليها أن التذكير برتبته العسكرية سيعزز من فرص انتخابه، سيعيد البلاد إلى حظيرة النظام السابق. كثيرون يعتبرون شفيق من (فلول) حكم مبارك وهو ليس ديمقراطيا ولن يمثل إنطلاقة جديدة لمصر الثورة. ويتفق في هذا كثيرون من إسلاميين وعلمانيين. فقد نصح زعيم حزب الغد الليبرالي، أيمن نور، أتباعه بالتصويت للإسلامي محمد مرسي مفضلا إياه على العلماني شفيق. وهذا هو حال كثيرين ممن شاركوا في الثورة ضد النظام السابق، فهم يعتبرون مجيء شفيق إلى الحكم عبر الانتخابات خيبة أمل كبرى لهم. لكن القلق من حكم الإخوان بين المصريين أكبر بكثير من القلق من تولي شفيق الحكم. كثيرون ممن تحدثت إليهم قالوا إنهم لا يحبذون التصويت لشفيق لكنهم مضطرون إلى ذلك لأن حكم الإخوان سيغير مصر إلى الأسوأ لأن المصريين "سيفقدون حتى الحريات التي كانوا يتمتعون بها أيام مبارك" إن جاء الإخوان إلى الحكم. ورغم ان مرسي أكد مرارا على أنه لن يمس الحريات ولن يفرض حكم الشريعة على البلاد وسوف يحتكم إلى الدستور والقانون، إلا أن كثيرين لا يصدقونه ويعتقدون أنه سيكون "أداة طيعة بين المرشد العام للأخوان المسلمين، محمد بديع، الذي لا تهمه صناديق الاقتراع بقد ما يهمه تطبيق أيديولوجية الإخوان في الحكم". قال لي أحد الصحفيين المخضرمين "نحن بين خيارين أحلاهما مر. إن جاء الإخوان فسوف يحكمون كطالبان وسوف تشتد المزايدات بينهم وبين التيار السلفي المتشدد المتمثل في حزب النور. وإن جاء شفيق فإنه ينتمي إلى النظام السابق ولا نعرف إن كان سيغادر مبادئ وطرق ذلك النظام في الحكم أم لا وهل سيقضي على الفساد أم يتستر عليه. لكن أكثر المصريين سوف يلجأون اضطرارا إلى شفيق خوفا من حكم الإخوان الذي سيلقي بهم إلى المجهول".

يبدو أن المصريين يتجهون نحو انتخاب الفريق أحمد شفيق كي يبقوا بعيدين عن تحكم المرشد، محمد بديع وتلميذه محمد مرسي، فالفريق في رأيهم سوف يضبط الأمن والنظام ويحفظ علاقات مصر مع باقي العالم وهو بالتأكيد لن يدخلهم في حرب مع إسرائيل هم غير مستعدين أو قادرين على خوضها. وسواء انتخب المصريون الفريق أم المرشد، فإن سؤالا سيبقى يدور في أذهان كثيرين وهو: لماذا بدأت الناس تخشى من حكم الإسلاميين ووعودهم الكثيرة بالالتزام بالدستور والقانون وتحقيق المساواة بين الناس؟ أليس في هذا عبرة لمن يصرون على إقحام الدين في السياسة؟...